مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٨) العدد (٢)
الإصدار السادس والعشرون
(١-١٤) ٢٠٢٥

السعادة المترلية في مترل الفناء التقليدي

رانية مؤيد
أ. علي عمران لطيف الذهب
جامعة بابل، كلية: الهندسة، قسم: العمارة.
نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ مايو ٢٠٢٥م

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الملخص

يتناول هذا البحث تأثير عمارة البيت بصورة عامة والبيت التقليدي على وجه الخصوص في استثارة محفزات السعادة المترلية و اثر التغيرات والتحولات الاجتماعية التي مر بها المجتمع العراقي على مستويات الرضا والراحة وبالتالي السعادة. يتناول البحث في اطاره النظري نوع من المقارنة التحليلية الوصفية بين البيوت القديمة ذات الفناء الداخلي والبيوت المعاصرة التي تميل إلى العزلة والافتقار إلى الأماكن التي تحفز التفاعل والترابط بين افراد المحلة ومستخدميها. خلال الفترة القديمة (١٨٦٩-١٩٤٠)، كانت مساكن الحلة تعتمد اسلوب الفناء الوسطي بشكل كبير فيما أدت التغيرات الاقتصادية والثقافية ودخول الحداثة الى التوجه نحو التنظيم الفضائي المفتوح من خلال هياكل بنائية تركز على المظهر الخارجي بدلاً من الدور المجتمعي والقيم الرصينة المتوارثة، مما قلل من الترابط والراحة النفسية بين افراد العئلة وبينهم وبين افراد المحلة. يتمحور البحث في الاجابة عن سؤاله الرئيسي المتمثل في "ما اذا كانت عمارة البيت التقليدي ذو الفناء الوسطي يمثل المعالجة المثلى في الوصول الى عمارة مستدامة ذات تاثير ايجابي في استثارة محفزات السعادة المترلية لدى مستخدميها؟" تعتمد الدراسة على المنهجية التحليلية الوصفية والتاريخية علاوة على الاسلوب النوعي من خلال اجراء عدد من المقابلات الشخصية واستخدام المصادر الارشيفية والمخططات والصور الفوتوغرافية للوصول الى نوع من المصداقية في نتائج وتوصيات البحث. كما يشدد البحث على أهمية استلهام السمات والمعالجات التقليدية في تصاميم البيوت الحديثة لما لها من تاثير محتمل (استنادا الى هذه الدراسة) في رفع مستوى الراحة والسعادة لدى مستخدميها.

الكلمات المفتاحية: السعادة المنزلية، منزل الفناء، التماسك الاجتماعي، الخصوصية.

Abstract

This research examines the impact of house architecture in general, and the traditional house in particular, on stimulating domestic happiness factors, as well as the impact of social changes and transformations witnessed by Iraqi society on levels of satisfaction, comfort, and, consequently, happiness. Within its theoretical framework, the research offers a descriptive and analytical comparison between old houses with an inner courtyard and contemporary houses, which tend toward isolation and limited spaces that stimulate interaction and interaction between neighborhood residents and users. Between 1869 and 1940), Hilla's dwellings relied heavily on the central courtyard style, while economic and cultural changes and modernity emergence led to a trend toward open spatial organization through building structures that emphasize external appearance rather than focusing on societal roles and established inherited values. This has reduced interaction and psychological comfort among family members, and between them and neighborhood residents. Research focuses on answering its main question: "Does the architecture of the traditional house with a central courtyard represent the optimal approach to achieving sustainable architecture with a positive impact on stimulating domestic happiness factors among its users?" The study adopts a descriptive and analytical historical approach, in addition to a qualitative approach, through conducting a number of personal interviews and using archival sources, plans, and photographs to achieve a degree of credibility in research findings and recommendations. The study also emphasizes the importance of drawing inspiration from traditional features and treatments in modern home designs, given their potential impact (based on this study) in enhancing the comfort and happiness of their users.

Keywords: Domestic happiness, courtyard house, social cohesion, privacy.

*** المقدمة**

تُعد السعادة المنزلية مفهومًا متعدد الأبعاد تتداخل في استثارة محفزاته مجموعه من المعايير والعوامل الثقافية والاجتماعية والبيئية وغيرها. حيث تؤثر البيئة المشيدة والتنظيم الفضائي لمكوناتها بشكل كبير على مستويات الراحة النفسية

والعلاقات البينية لأفرادها. تأثر المجتمع في المدينة العراقية بشكل عام، وخلال القرن العشرين، بتغيرات مختلفة داخليا وخارجيا انعكست على تخطيط وعمارة البيت بشكل خاص. حيث انتقلت فيها عمارة المترل من الاسلوب التقليدي ذات الفناءات الداخلية، والتي كانت تدعم، استنادا الى العديد ن الطروحات والبحوث العلمية، الترابط الأسري والخصوصية وتعزز من قيم المجتمع وعاداته وسلوكياته المتماسكة والموروثة، إلى مساكن تميل إلى الفردية وتركز على الجوانب الشكلية على حساب الدور الوظيفي في العلاقات الفضائية والاجتماعي في التفاعلات السلوكية وبالتالي طبيعة الروابط والعلاقات البشرية. يهدف هذا البحث إلى دراسة تأثير تصميم البيوت ذات الفناءات مقارنة بالمساكن الحديثة على مستوى الراحة النفسية والسعادة بمفهومها الاشمل، مع التركيز على كيفية مساهمة العناصر والمعالجات المعمارية علاوة على القيم الثقافية–الإنسانية في تحسين جودة الحياة. يسعى البحث من خلال تحليل وصفي وتأريخي إلى استكشاف تأثير التغيرات الثقافية والبنائية على العلاقات الأسرية والجيرة، وما إذا كانت البيوت ذات الفناءات تمثل نموذجًا مثاليًا للحياة المريحة والمستقرة وبالتالي الاستدامة بابعادها ومعاييرها المتعددة (عبد المنعم، ٢٠١٢، ص٤٥).

تدور إشكالية هذا البحث حول كيفية تأثير التغيرات الاجتماعية والثقافية التي مر بها المجتمع العراقي خلال القرن العشرين في عمارة المترل وتنظيمه الفضائي وبالتالي مستويات الرضا والسعادة المترلية، مع التركيز على جوانب الاختلاف بين البيوت التقليدية ذات الفناءات الداخلية والبيوت الحديثة. في الإطار التاريخي، تُعزز المساكن التقليدية مديات الارتباط الأسري والخصوصية والتماسك الاجتماعي من خلال تنظيمها الفضائي الذي يرتكز على اسلوب تدريجي في الانتقال بين فضاءاتها (من العام الى شبه العام_الخاص ثم الخاص) وبنمط يمنح الحرية المطلقة للمرأة بالتحرك في جنتها الدنيوية (البيت) وبعيدا عن أبصار المارة، مما ساهم في تحقيق السعادة المترلية واحترام المرأة وخلق مجتمع قوي ومتماسك. ولكن التغييرات الاجتماعية إلى جانب التحولات الاقتصادية والسياسية، التي مر بها البلد، أدت إلى ظهور تصاميم حديثة ومستعارة من بيئات اجنبية تفتقر في تنظيمها الوظيفي والفضائي إلى مراعاة حقيقية للجوانب الثقافية والاعراف الاجتماعية التي تدعم قيم ومعايير المجتمع والدين الاسلامي، والذي يعزز بالنتيجة التواصل بين الأفراد والجيران، مما أثر سلبا على مستوى السعادة المترلية. تكمن المشكلة في غموض مدى تأثير هذه التغيرات على السعادة المترلية، وما إذا كانت البيوت ذات الفناءات أكثر قدرة على تحقيق السعادة المترلية مقارنة بالبيوت الحديثة، ولقد اعتمد البحث في جانبه العملي سياق مدينة الحلة كحالة دراسية للوصول الى الاهداف الرئيسية والاجابة على تساؤلاته.

تكمن أهمية البحث في السعي إلى ملء الفجوة المعرفية حول كيفية تأثير عمارة البيت على السعادة المترلية، من خلال مقارنة زمنية بين الأنماط القديمة والحديثة في العراق. كما يكشف البحث عن تأثير التحولات الثقافية والاجتماعية على العلاقات الاسرية بكافة اشكالها والسعادة المترلية للمجتمع، مقدمًا رؤى لتحسين مستوى المعيشة في المناطق

الحضرية. كما يقترح البحث إرشادات للمهندسين والمخططين الحضريين لتصميم مساكن وأحياء تراعي القيم الثقافية مثل الخصوصية والتواصل بين الأفراد، بهدف تعزيز السعادة المترلية. كما يساهم البحث في الحفاظ على الإرث التقليدي من خلال دراسة عمارة البيت، مؤكداً أهميتها كجزء من الهوية الثقافية والتاريخية للمجتمع العراقي.

يتمحور البحث بشكل رئيسي في الاجابة على" إلى أي مدى تساهم المنازل ذات الفناءات مقارنة بالمنازل المعاصرة في تحقيق السعادة المترلية في العراق؟" يهدف البحث الى مناقشة تأثير عمارة البيوت ذات الفناءات المركزية، مقارنة بالبيوت المعاصرة، في استثارة محفزات السعادة المترلية ورصد العناصر والمعالجات المعمارية في البيوت التقليدية التي تعزز السعادة المترلية. بالاضافة الى ذلك، يتناول البحث دراسة تأثير التغيرات الاجتماعية والثقافية على الترابط بين الأفراد والسعادة المترلية في الأحياء الحديثة في الحلة. يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي المقارن عبر فترات زمنية متعاقبة لاستكشاف مدى تأثير الهندسة المعمارية السكنية والتغيرات المجتمعية المختلفة على السعادة المترلية للأفراد، مدعوماً بالبحوث النظرية والتاريخية واستند إلى مزيج من المقابلات الشخصية والمخططات والمراجع الأرشيفية والصور الفوتوغرافية.

*** مفهوم السعادة**

يُعد مفهوم السعادة محور اهتمام عدة تخصصات مثل الفلسفة، علم النفس، والدراسات الدينية، حيث تناوله المفكرون وعلماء النفس والباحثون من وجهات نظر متنوعة. يتوقف شعور السعادة بشكل رئيسي على كيفية إدراك الأفراد لبيئتهم والعوامل المؤثرة في محيطهم، سواء كانت اجتماعية، ثقافية، أو مادية (الذهب، ٢٠١٦، ص ١٥). وفي مدينة الحلة، على سبيل المثال، كان في الأحياء التقليدية، المحلات، نوع متفرد من القيم والاعراف والممارسات التي تعزز انماط التواصل بين الأفراد من خلال التنظيم التدريجي لفضاءاتها من العام وصولا الى البيوت ذات الفناءات الداخلية، مما يعكس ويجسد قيم التفاعل المتماسك والخصوصية غيرها والتي التي تساهم في السعادة (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٠). تناولت الدراسات السعادة كمفهوم متعدد الجوانب، متأثر بالسياقات اليومية التي قد لا يدركها الأفراد بشكل واعٍ. فالسعادة ليست حالة نفسية، بل هي نتيجة تفاعل الفرد مع بيئته المجتمعية والمادية، مما يجعلها هدفًا أساسيًا للمجتمع (جوغوريانو، ٢٠١٦، ص ٥٦). في الحلة، كانت الأسواق القديمة والمساجد مراكز للتواصل بين الأفراد، مما عزز شعور الانتماء والسعادة بين السكان (الوردي، ٢٠٠٩، ص ١١٢).

أثرت التبدلات المجتمعية التي مر بها العراق في القرن العشرين على قيم الأفراد ومعتقداتهم، حيث حل التوجه الفردي محل التفكير الجماعي. انعكس هذا على هياكل البيوت، التي انتقلت من أماكن تعزز الترابط إلى هياكل تعبر عن العزلة الفردية (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٩٨). في الحلة، بدأت البيوت الحديثة تخلو من الساحات الداخلية، مما قلل من فرص التواصل داخل الأسرة ومع الجيران، وأثر بالتالي على السعادة المترلية (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٥). ركزت الدراسات المعاصرة على أهمية التواصل بين

الأفراد والروتين اليومي في تحقيق السعادة، مع التأكيد على دور المكان في دعم الرفاهية (بالاس، ٢٠١٣، ص ٤٠). كانت المحلة التقليدية بيئة تعزز العلاقات الوثيقة بين العائلات، مما ساهم في تحقيق السعادة الجماعية (الذهب، ٢٠١٦، ص ٧٨) (ليوبوميرسكي وآخرون، ٢٠٠٥، ص ١١٢).

*** المحفزات الاجتماعية للسعادة**

تُعد السعادة محورًا أساسيًا حيث تلعب الروابط العائلية والتفاعلات الجماعية دورًا رئيسيًا في تحقيقها. ويشير البحث إلى أن الأفراد، بحاجتهم الطبيعية للتواصل، يسعون إلى بناء علاقات جماعية تُعزز شعورهم بالسعادة (باومايستر ومارك، ١٩٩٥، ص ٤٩٧). من هذا المنظور، يُعتبر التكافل والترابط الجماعي من العناصر الأساسية التي تُشكل الهوية الثقافية للمجتمع. كما تُظهر الدراسات أن الترابط بين الأفراد يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسعادة ورضا الحياة، بينما يؤدي غيابه إلى مشاعر الاكتئاب، القلق، أو العزلة (باومايستر ومارك، ١٩٩٥، ص ٥٠٠).

يُوصف الترابط بين الأفراد بأنه "عملية مستمرة لبناء قيم مشتركة، ومواجهة تحديات مشتركة، وتوفير فرص عادلة، استنادًا إلى شعور بالثقة، الأمل، والدعم المتبادل بين السكان" (تشان وآخرون، ٢٠٠٦، ص ٢٧٥). ويتميز بمجموعة من المواقف والمعايير مثل الثقة، الانتماء، والرغبة في المشاركة والمساندة، إلى جانب تجلياتها السلوكية (تشان وآخرون، ٢٠٠٦، ص ٢٧٦). كما يختلف الباحثون حول تقييم الترابط الجماعي وأهمية القيم والعلاقات. يناقش برنارد (١٩٩٩) الاقتصاد والمساواة/عدم المساواة كعناصر رئيسية، حيث يظهر أن الدخل أو التوقعات المادية لا ترتبط مباشرة بالسعادة، حيث "المال لا يجلب دوما السعادة" (برنارد، ١٩٩٩، ص ١٢).

وفي دراسته عن الانتحار، أشار دوركهايم (١٩٩٧ [١٨٩٧]) إلى وجود علاقة وثيقة بين الترابط الجماعي والراحة النفسية للأفراد (دور كهايم، ١٩٩٧، ص ٤٥). كما أوضح فينهوفن أن الرضا الشخصي يكون في أدنى درجاته خلال مراحل الحياة التي تشهد أعلى درجات الانخراط في الأنشطة العامة (فينهوفن، ٢٠٠٨، ص ٤٨). من هذا المنظور، تتشكل قيم وسلوكيات بناءً على طبيعة البيئة الجماعية التي نشأوا فيها (دوركهايم، ١٩٦١، ص ٧٢). ويرى دوركهايم أن تحقيق السعادة يتم عبر نظام يحكمه القيم الجماعية والتقاليد الموروثة (دوركهايم، ١٩٦١، ص ٧٥). كما أكد الوردي أن الأفراد يستطيعون تحقيق السعادة في مجتمع يعتمد على قوة القيم الثقافية والعلاقات المبنية على قواعد فكرية راسخة (الوردي، ٢٠٠٩، ص ١١٢).

تُظهر الأحياء التقليدية في مدينة الحلة نموذجًا متفردا للترابط الجماعي، حيث تقوم العلاقات بين الجيران على التضامن والدعم المتبادل، وبالتالي شكلت المحلة وحدة جماعية متكاملة تجسد شعور الانتماء والثقة بين افرادها (الذهب، ٢٠١٦، ص ٨٥). على سبيل المثال، كانت عادات، مثل مشاركة الطعام بين الجيران أو لعب الأطفال في الأزقة، ترفع درجات السعادة من خلال تقوية الروابط الجماعية (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٢). وفي المقابل، تشهد المناطق المعاصرة تراجعًا في هذه العلاقات بسبب التوجه الفردي وتغير

أنماط الحياة، مما أثر سلبًا على الترابط الجماعي والسعادة المترلية (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٦٠٢). ففي السياقات التقليدية، تتجسد معايير الخصوصية، التفاعل الوثيق، العلاقات الجوارية، ودور المرأة بالمجموعة (الأسرة، الأقرباء، أو المحلة) وترابط الأفراد (أبو غزة، ٢٠١٠، ص ٢٧٢). فيما تهيمن الأهداف الشخصية والمصالح الفردية بشكل كبير في المجتمعات الحديثة، مما يقلل من درجات الراحة النفسية والسعادة (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٥). حيث كانت البيوت ذات الفناءات تتيح للنساء التواصل مع الجيران دون التأثير على خصوصيتهن، بينما تفتقر البيوت المعاصرة إلى هذه الناحية، مما يؤدي إلى شعور بالعزلة (الذهب، ٢٠١٦، ص ٩٠).

شكل (١) توضح الازقة الضيقة والشوارع في المحلات القديمة في العراق –بابل

*** النهج الاجتماعي–المكاني للسعادة**

تُعد الفضاءات الجماعية والبيئات النشطة اجتماعيا عوامل رئيسية تؤثر على صحة الفرد وسلوكياته، تدعم الراحة النفسية، وتحسن الأنشطة والتفاعلات اليومية (بالاس، ٢٠١٣، ص ٤٠). يُشكل المترل سياق بيئي مرتبط ارتباط وثيق بطبيعة التفاعلات الجماعية والسلوكيات او الممارسات

اليومية بما يحدد مستويات السعادة (دوفي، ١٩٨٥، ص ٣٥). حيث تحدد أنماط تفاعل الأفراد مع الأماكن المادية العناصر الثابتة وشبه الثابتة وغير الثابتة في البيئة المبنية (بورتيوس، ١٩٧٧، ص ٤٥)، وبالتالي يؤثر تنظيم هذه العناصر يعكس مستويات الرضا. كما أكدت دراسات عديدة أن الجوانب المادية ترتبط بالسعادة من خلال إنشاء أماكن جماعية ذات معنى ومغزى اجتماعي، والذي بدوره يعزز الرضا النفسي لدى افرادها (كارمونا وآخرون، ٢٠١٠، ص ١٢٠).

يُعتبر المنزل مرآة حقيقية للسياق الثقافي المحيط، ووسيلة فعالة لتجسيد القيم المختلفة، ومحفز مادي لإرضاء ساكنيه ومنح مستوى من القناعة والرضا (خان ومور، ١٩٩٠، ص ٦٥). فيما تشير التوجهات الحديثة الى ان المنزل إبداع بصري أو تركيبة جمالية تعكس تحولات ثقافة المجتمع (نوكس، ١٩٨٤، ص ١١٠). يتناقض هذا المفهوم مع الابعاد والموروث الثقافي للمنزل الذي يشدد على التنظيم الجماعي – المكاني المتكامل والأهداف الثقافية والوظيفية لهياكله البنائية كمعيار اساسي لخلق بيئة مستدامة (بيانكا، ٢٠٠٠، ص ١٥٠). وبالتالي، يمكن تحقيق الراحة والرضا والسعادة من خلال تجسيد التفاعلات الجماعية الوثيقة والسلوكيات المتوافقة مع الأعراف الجماعية (عبد المنعم، ٢٠١٢، ص ٣٨).

تندمج الجوانب المادية المحسوسة مع المعنوية في المنزل التقليدي باسلوب متكامل ومتوازن في جميع عناصره (أبو غزة، ٢٠١٠، ص ٢٧٥). حيث يشير القرآن إلى أن الله جعل البيوت مكانًا للسكن والطمأنينة، حيث يجد الأزواج السكينة (الكليني، ٢٠٠٧، ص ١٣٢). وفي حديث للرسول (ص): "أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنّين" (حوت، ١٩٩٦، ص ٤٥). لذا، يُعد توسيع الأماكن المادية للفرد كبيئة تفاعلية عاملاً يعزز السعادة المنزلية للأسر (رابوبورت، ٢٠٠٧، ص ٦٠). ولقد صُممت البيوت ذات الفناءات لتشجيع التواصل الجماعي بين افرادها مع الحفاظ على الخصوصية باستخدام معالجات معمارية ذات ابعاد اجتماعية، حيث كانت النوافذ الخشبية المزخرفة (الشناشيل) تسمح للنساء التفاعل مع الجيران بأمان دون ملاحظتهم بصريا من قبل المارة في ازقتها (الذهب، ٢٠١٦، ص ٨٨). بالمقابل، تفتقر البيوت المعاصرة إلى مثل هذه المعالجات، مما يزيد من الشعور بالعزلة (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٦٠٥).

كمؤسسة إنسانية، يرتبط المنزل بأفراد الأسرة من حيث احتضان قناعاتهم الجماعية، معتقداتهم الثقافية، عواطفهم، وتقاليدهم المتوارثة (دوفي، ١٩٨٥، ص ٣٨). حيث يرتبط بكيفية إدراك الافراد للتحولات الجماعية وعلم النفس البيئي والعناصر المادية والمكانية للمنزل (بورتيوس، ١٩٧٧، ص ٤٨). ويرى دوفي أن المنزل بيئة متطورة تحتضن الممارسات اليومية، مشيرًا إلى العلاقات بين الإنسان والمجتمع (دوفي، ١٩٨٥، ص ٤٠). وفقًا لكوريجان–كافانا وآخرين، يمكن للمنزل أن يؤثر بشكل إيجابي أو سلبي على السعادة عبر طبيعة التفاعلات الجماعية (كوريجان–كافانا وآخرون، ٢٠١٩، ص ١٠). يجسد التعبير عن الذات في المنزل اهتمامًا بالتفاعل العاطفي والجماعي، مما يجعل الحياة ذات معنى (بينك، ٢٠١٢، ص ٥٥).

*** التحليل الزمني للحياة الحضرية في العراق خلال القرن العشرين**

*** السياقات التقليدية وأنظمة القيم الاجتماعية–ثقافية**

تقدم البيئات التقليدية في العراق، والتي امتدت من عام ١٨٦٩ حتى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، نموذجًا مميزًا للحياة الحضرية يعكس منظومة القيم المتكاملة التي كانت تهيمن على المجتمع العراقي. حيث كانت البيوت ذات الساحات الداخلية النمط البنائي الأبرز خلال تلك الفترة، حيث صُممت بدقة لتعزز الخصوصية، الترابط الجماعي، والتواصل بين الأفراد ضمن إطار المحلة، وهي الوحدة الحضرية الرئيسية التي تجسد القيم الثقافية والجماعية للسكان (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٠). يتميز هذا النمط بتوزيعه المكاني المنظم الذي ينتقل تدريجيًا من الأماكن العامة إلى شبه العامة ثم الخاصة، مما يعكس القيم الثقافية والدينية المتأصلة القائمة على الألفة، حسن الجوار، واحترام خصوصية الأسرة والفرد (أبو غزة، ٢٠١٠، ص ٢٧٥). في هذه الحالة، كانت العناصر الفضائية مثل الفناء (الحوش) شكل (٢)، والنوافذ الخشبية المزخرفة (الشناشيل) شكل (٣)، تلعب أدوارًا حيوية في تحقيق التوازن بين التواصل الجماعي والحفاظ على الخصوصية، خاصة بالنسبة للنساء، اللواتي كُنّ يُشكلن ركيزة اساسية في الحياة الأسرية (عبد المنعم، ٢٠١٢، ص ٣٨).

الشكل (٢): الفناء (الحوش) في بيت حمادي حسن (محلة المهدية).

الشكل (٣): بيت النقيب في الكاظمية، بغداد–العراق، يظهر أهمية الشناشيل والساحة المركزية بالنسبة للمساحات الاجتماعية المحيطة.

١– منزل الفناء: تجسيد القيم الاجتماعية–ثقافية: منزل الفناء، كما يُعرف في العراق، ليس مجرد هيكل بنائي يضم مجموعة من الفضاءات، بل تجسيدًا ماديًا للقيم الثقافية والجماعية التي كانت تحكم المجتمع. حيث تعتبر الساحة المركزية بمثابة قلب المنزل الذي يوفر فضاءا مفتوحًا لأداء وممارسة مختلف التفاعلات العائلية، مثل استقبال الزوار، إقامة المناسبات الدينية كالاحتفالات بالموالد النبوية، أو التجمعات العائلية كالأفراح وغيرها (رابوبورت، ٢٠٠٧، ص ٦٠). ويتسم هذا الفضاء بمعانٍ رمزية عميقة، حيث يُنظر إليه كجسر روحي يربط السكان بالسماء، مما يعزز شعورهم بالسكينة والطمأنينة (الكليني، ٢٠٠٧، ص ٤٥). ووفقًا لبيانكا (٢٠٠٠، ص

١٤٢)، رُتبت الساحة المركزية كمحور للأنشطة حيث تلتقي الأسرة لتشارك الطعام، تتحاور حول الأمور اليومية، أو تمارس الطقوس الدينية كالصلاة الجماعية وغيرها.

تتميز مدينة الحلة بإرثها الثقافي العريق، حيث تعكس البيوت ذات الفناء الوسطي بوضوح القيم الثقافية والجماعية المحلية. كانت البيوت في أحياء الحلة القديمة، مثل محلة المهدية أو محلة الكراد، تُصمم حول ساحة مركزية غالبًا ما تحتوي على نافورة صغيرة أو أشجار لتوفير الظل والجمال الطبيعي، مما يساهم في الراحة النفسية (الذهب، ٢٠١٦، ص ١١٢). إلى جانب ذلك، كانت النوافذ الخشبية المزخرفة (الشناشيل) عنصرًا بنائيًا بارزًا في الحلة، حيث مكّنت النساء من مراقبة الأزقة والتواصل مع الجيران دون التعرض المباشر للعامة، مما دعم شعورهن بالأمان والانتماء إلى المجتمع كما في شكل رقم (٤) (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٥٩٨). هذه النوافذ لم تكن مجرد زخرفة، بل كانت أداة جماعية تتيح للنساء المشاركة في الحياة العامة بما يتماشى مع القيم الثقافية والدينية (أبو غزة، ٢٠١٠، ص ٢٨٠).

شكل (٤) : يوضح الشناشيل في محلة الكراد في الحلة

٢- المحلة: وحدة حضرية تعزز التماسك الاجتماعي: تميزت المحلة التقليدية بتخطيط حضري دقيق يعزز الترابط الجماعي من خلال الأزقة الضيقة المتعرجة التي تربط البيوت، مما يسهل التواصل اليومي بين الجيران ويخلق شعورًا بالانتماء (بيانكا، ٢٠٠٠، ص ١٤٥). تمثل المحلة في الحلة وحدة جماعية – مكانية تجمع العائلات التي تتقاسم قيمًا وعادات مشتركة، مما يدعم التضامن والتكافل الاجتماعي (الوردي، ٢٠٠٩، ص ١٧٨). كمثال، كان الجيران في المحلة يتبادلون الطعام خلال شهر رمضان، ويتعاونون في تنظيم الأفراح أو مراسم العزاء، مما يعكس روح التعاون والتوجه الجماعي (الذهب، ٢٠١٦، ص ١١٥). كان هذا النظام الجماعي – المكاني مدعومًا بقيم دينية مستمدة من الإسلام، والتي تحث على احترام الخصوصية والتوازن بين الحياة الدنيوية والروحية (سبحان، ٢٠١٩، ص ٣٩٨). كما يراعي تصميم البيت التقليدي الفصل بين الأماكن العامة والخاصة، مما يوفر للنساء بيئة آمنة لأداء أنشطتهن اليومية والتواصل مع الجيران دون المساس بخصوصيتهن (عبد الرحيم وأبو حسان، ٢٠١١، ص ١١٧). ولقد ساهم هذا التوزيع المكاني في تعزيز مكانة المرأة داخل الأسرة والمجتمع، حيث تُعتبر "أساس الحياة الأولى"، كما وصفها الباحثون (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٢).

٣-دور العناصر المعمارية في تعزيز السعادة: لقد تم تنظيم المعالجات المعمارية في البي، كالردهة المغطاة في الطابق الوسطي والمطلة على الساحة الداخلية (الأرسي) و (الكابيشكان)، باسلوب متفرد لتلبية الحاجات المشتركة لساكنيه ولاغراض مناخية ايضا. حيث كانت الردهة المغطاة، على سبيل المثال،

بمثابة مكان شبه مفتوح يُستخدم لتجمعات العائلة في الأمسيات الصيفية من قبل الاباب او الضيوف المتميزين من النساء، مما يشجع التواصل الأسري ويعزز الشعور بالراحة (رابوبورت، ٢٠٠٧، ص ٦٢). كما كانت هذه العناصر تُزخرف غالبًا بنقوش مستوحاة من الفن الإسلامي، مما يضفي جمالًا فريدا يعزز الرضا والراحة النفسية (عبد المنعم، ٢٠١٢، ص ٤٠).كما في شكل رقم (٥). كما ساهم استخدام المواد الطبيعية مثل الطين والخشب في بناء البيوت في خلق بيئة مريحة مناخيًا وجذابة بصريًا مما عزز السعادة المترلية (بودياف، ٢٠١٠، ص ٩٥).

اجتماعياً، كان التوجه الجماعي هو السمة السائدة في المحلة القديمة. حيث كان رضا الفرد وسعادته مرتبطين بمدى رضى المجتمع المحيط به. وكان يُنظر إلى سعادة الفرد كجزء لا يتجزأ من سعادة الجماعة (باومايستر وليري، ١٩٩٥، ص ٥٠٠). هذا النهج عزز التضامن والتكافل، حيث كان الجيران يتعاونون في مواجهة التحديات اليومية، سواء كانت اقتصادية أو عائلية (تشان وآخرون، ٢٠٠٦، ص ٢٧٨). وكانت الأزقة تمثل بيئات نابضة بالحياة حيث يلعب الأطفال ويتفاعل السكان مع بعضهم البعض، مما يضفي على المحلة طابعًا حيويًا يعزز الشعور بالانتماء والسعادة (بالاس، ٢٠١٣، ص ٤٢).

شكل (٥) : الزخارف في بيت حمادي الحسن في محلة المهدية

٤- الحلة كمثال للسياق التقليدي: لا تعكس المحلة القديمة فقط القيم الثقافية والاجتماعية لافرادها، بل وتعتبر أيضًا مركزًا للأنشطة الدينية ولاداء الممارسات الدينية في كافة المناسبات.حيث يحتل الجامع الكبير في المحلة النقطة المركزية في تنظيمها الفضائي والميدان الاوسع لتجمع والتقاء السكان لأداء الصلوات والاحتفال بالمناسبات الدينية.بما عزز الروابط بين الأفراد ويخلق مجتمعا متماسكا ورصينا (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٦٠٠). كما كانت الأسواق القديمة المجاورة للمحلات بيئات نابضة بالحياة لاغراض التبادل

التجاري والتواصل بين سكانها، حيث يتشاركون الأخبار والسلع (الوردي، ٢٠٠٩، ص ١٨٢). ومن هذه الأماكن العامة وباتجاه البيوت تنتقل الفضاءات الحضرية باسلوب تدريجي في ابعادها وعضوي في تنظيمها بما يشكل نظامًا متكاملًا متفرد يدعم الحياة المستدامة والسعادة المترلية من خلال التفاعل الوثيق والتخطيط الحضري المنظم.

ومن الناحية الدينية، استند تصميم البيت في الحلة إلى المبادئ الإسلامية الرصينة والتي تحث على احترام الخصوصية ودور المرأة ومكانتها وتحقيق التوازن بين الجوانب المادية والروحية (سبجان، ٢٠١٩، ص ٤٠٠). كما يتم الاعتناء بالفناء الوسطي وتزيينه بمجموعة من المعالجات البنائية والطبيعية، أحيانًا بنافورة تُستخدم للوضوء قبل الصلاة او تغليف الجدران او الاعمدة الداخلية او غيرها، بما يعمق الارتباط الروحي بالمكان ويخلق بالتالي الجنة الدنيوية بالنسبة للمرأة (الكليبي، ٢٠٠٧، ص ٤٧). هذه العناصر جعلت البيت القديم في الحلة ليس مجرد مأوى، بل بيئة تعكس القيم الثقافية والدينية للسكان، وبما يساهم في تعزيز شعور افرادها بالسعادة المترلية والرضا النفسي (دوفي، ١٩٨٥، ص ٣٥).

بشكل عام، كانت البيئات القديمة، مثل مدينة الحلة، تعكس نظامًا جماعيًا – مكانيًا متكاملًا يقوم على القيم الثقافية والدينية لخلق أماكن حياتية تدعم السعادة. ومن خلال التخطيط الحضري المنظم والتصميم المدروس للبيوت، تمكنت المحلة القديمة من توفير بيئات تشجع التواصل بين الأفراد، تحافظ على الخصوصية، وتعزز الشعور بالانتماء، مما جعلها نموذجًا مثاليًا للحياة المستدامة (عبد المنعم، ٢٠١٢، ص ٤٥).

*** السياقات المعاصرة والتحولات الاجتماعية**

ومع دخول العراق مرحلة الحداثة منتصف القرن العشرين، تغيرت الحياة الحضرية بشكل كبير، مما أثر على القيم الثقافية وتصميم البيوت. التغيرات الاقتصادية والسياسية عززت الفردية وأضعفت الترابط البشري (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٦٠٢). حيث استُبدل البيت ذو الفناء الوسطي بالفيلات والشقق التي ركزت على المظهر دون التفاعل البشري (الذهب وآخرون، ٢٠١٤، ص ٢٤٥).

وفي الحلة، كغيرها من مدن العراق، أصبحت الفيلات رمزًا للفردية، حيث قللت تصاميمها المكلفة وغير المنظمة الخصوصية وأضعفت وحدة الأسرة (الذهب، ٢٠١٦، ص ١٤٥). كما تفتقر هذه البيوت إلى مساحات مشتركة والذي أدى بدوره الى عزل أفراد الأسرة (دي بوتون، ٢٠٠٦، ص ١١٢). فالتركيز على الواجهات الخارجية قلل من الراحة النفسية (نوكس، ١٩٨٤، ص ١١٠).

وعلى مستوى الأحياء، وتحولت المدينة من محلات مترابطة إلى أحياء حديثة ذات تخطيط متشابك ومفتوح مما أضعف علاقات الجيران مع بعضهم البعض (الوردي، ٢٠٠٩، ص ٢٠٥). ولقد أشار ٨٢٪ من سكان الأحياء الحديثة إلى ضعف الروابط الجوارية (الذهب وعبد المنعم، ٢٠١٩، ص ٦٠٥)، حيث اصبح أطفال المحلة السكنية محصورين ضن حدود البيوت لأسباب أمنية، مما قلل حيوية الأحياء (بالاس، ٢٠١٣، ص ٤٢).

ثقافيًا، تأثرت الحلة بالعولمة التي قللت من قيم الجيرة والتكافل (بودياف، ٢٠١٠، ص ٩٨)، حيث أهملت

التصاميم المعاصرة الخصوصية والتوازن الروحي، مما قلل السكينة (سبجان، ٢٠١٩، ص ٤٠٠). ومع غياب الفضاءات العامة المفتوحة، اصبح هنالك نوع من القطع في مستويات الارتباط بالطبيعة، وهو ما كان يعزز الهدوء في البيوت القديمة (دوفي، ١٩٨٥، ص ٣٥).

بشكل عام، التشتت البشري والتصاميم غير المناسبة في المدينة العراقية بشكل عام قللت من مستويات الرضا والراحة النفسية وبالتالي السعادة وفق رأي الاغلبية في كلا النمطين (ليوبوميرسكي وآخرون، ٢٠٠٥، ص ١١٥).

*** النتائج**

أفضلية المنازل القديمة: أظهرت الدراسة، استنادا الى اراء ومقترحات الساكنين في كلا نمطي التخطيط ووفقا لاراء المختصين من المعماريين والمخططين واصحاب القرار في مؤسسات الدولة المعنية وبنسب لا باس بها، أن المنازل ذات الفناء الوسطي في المدينة العراقية بشكل عام، ومدينة الحلة موضوع الدراسة، كانت أكثر نجاحًا في تحقيق السعادة ورفع مستويات الرضا مقارنة بالمنازل الحديثة. حيث لعبت العناصر والمعالجات الداخلية مثل الفناء والشناشيل، اضافة الى العناصر الطبيعية المكملة، دورًا كبيرًا في تعزيز التواصل بين افراد الأسرة الواحدة والجيران فيما أدى غيابها في المنازل الحديثة إلى زيادة العزلة وضعف الاندماج والتفاعل الاجتماعي. اما فيما يتعلق بدور القيم الثقافية، فقد كانت قيم مثل التضامن وحسن الجوار أساسية في دعم السعادة في المحلة القديمة، بينما أدى تراجعها في السياق الحديث إلى انخفاض مديات الرضا والراحة النفسية. كما أفاد 74% من سكان الأحياء الحديثة في مدينة الحلة بضعف أو انعدام العلاقات الحميمة مع الجيران، مقارنة بالعلاقات القوية المتماسكة في الأحياء القديمة، حيث كان ينظر الى المحلة باعتبارها مترل وعائلة واحدة، مما أثر سلبًا على السعادة المترلية.

*** الخاتمة**

تشير الدراسة إلى أن السعادة في منازل مدينة الحلة ترتبط بالبيئة الحضرية والعوامل الثقافية التي تؤثر على الحياة اليومية. في الماضي، كانت المنازل ذات الفناء نموذجًا مثاليًا للعيش المستدام، حيث ساهمت عناصر مثل الفناء المركزي والشناشيل في تقوية الخصوصية والتواصل بين أفراد الأسرة والجيران، مما يزيد الانتماء والرضا النفسي. في المقابل، أدت العوامل الحديثة، كانتشار الفردية وتصاميم تركز على المظهر الخارجي بدلاً من الوظيفة العملية والقيم الرصينة، إلى انخفاض الروابط بين السكان وتراجع السعادة او مستويات الرضا والراحة النفسية في المنازل. تُظهر المقارنة في الحلة أن المنازل القديمة لا تزال نموذجًا ملهمًا لخلق بيئات حياتية مريحة، وأن دمج عناصرها في التصاميم المعاصرة قد يساعد في استعادة الراحة النفسية لمستخدميها والحفاظ على الطابع الثقافي للمجتمع العراقي.

*** المراجع**

أبو غزة، توفيق. (٢٠١٠). الخصوصية كأساس للتخطيط المعماري في الثقافة الإسلامية في المملكة العربية السعودية. العمارة والسلوك، ١١(٣-٤).

الذهب، علي. (٢٠١٦). نحو عمارة وشكل حضري مستدام: الجوانب الاجتماعية-الثقافية لتطبيق

مستدام لممارسة المنزل وحياة المحلة اليومية في العراق [أطروحة دكتوراه]. جامعة ولفرهامبتون.

الذهب، علي، ومشتت، صباح، وعبد المنعم، محمد جمال. (٢٠١٤). بين التقليد والحداثة: تحديد الأنظمة المكانية للخصوصية في العمارة المنزلية المعاصرة في العراق. مجلة أرشنت الدولية للعمارة، ٨(٣).

الذهب، علي، وعبد المنعم، محمد جمال. (٢٠١٩). تغيير الأنظمة الاجتماعية-المكانية للحياة الحضرية في العراق في القرن العشرين. مجلة أرشنت الدولية للعمارة، ١٣(٣).

الوردي، علي. (٢٠٠٩). دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث. بيروت: مكتبة دجلة والفرات.

بالاس، ديميتريس. (٢٠١٣). ما الذي يجعل مدينة 'سعيدة'؟ المدن، ٣٢.

باومايستر، روي ف.، ومارك، م. ر. (١٩٩٥). الحاجة إلى الانتماء: الرغبة في العلاقات البينية كدافع إنساني أساسي. النشرة النفسية، ١١٧(٣).

برنارد، بول. (١٩٩٩). التماسك الاجتماعي: نقد. ورقة نقاش رقم F 09. أوتاوا: شبكات البحث السياسي الكندية.

بيانكا، ستيفانو. (٢٠٠٠). الشكل الحضري في العالم العربي: الماضي والحاضر. لندن: تيمز آند هدسون.

بورتيوس، جون دوغلاس. (١٩٧٧). البيئة والسلوك: التخطيط والحياة الحضرية اليومية. شركة أديسون-ويسلي للنشر.

بينك، سارة. (٢٠١٢). تحديد الحياة اليومية: الممارسات والأماكن. لوس أنجلوس: سايج للنشر.

تشان، جوزيف، وهو-بونغ، تو، وإيلين، ت. (٢٠٠٦). إعادة النظر في التماسك الاجتماعي: تطوير تعريف وإطار تحليلي للبحث التجريبي. أبحاث المؤشرات الاجتماعية، ٧٥(٢).

جوغوريانو، ألكسندرا. (٢٠١٦). مقدمة قصيرة عن السعادة في العلوم الاجتماعية. بيلفيدير ميريديونال، ٢٨(١).

حوت، كمال يوسف. (١٩٩٦). الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان. بيروت: دار الكتب العلمية.

خان، حسان، ومور، تشارلز. (١٩٩٠). عمارة المنزل الفردي: فهم النماذج. في ر. باول (محرر)، عمارة الإسكان. سنغافورة: كونسيبت ميديا/جائزة آغا خان للعمارة.

دوفي، كيمبرلي. (١٩٨٥). المنزل والتشرد: مقدمة. في إ. ألتمان وك. م. ويرنر (محرران)، بيئة المنزل. السلوك البشري والبيئة: التقدم في النظرية والبحث. نيويورك: بلينم برس.

دوركهايم، إميل. (١٩٦١). التعليم الأخلاقي. نيويورك: ذا فري برس.

دوركهايم، إميل. (١٩٩٧). الانتحار. نيويورك: فري برس. (نُشر أصلاً ١٨٩٧)

رابوبورت، عاموس. (٢٠٠٧). طبيعة منزل الفناء: تحليل مفاهيمي. مجلة دراسات التصميم والتراث، ١٨(٢).

سبجان، محمد عزيزان. (٢٠١٩). معنى وتجربة السعادة في الإسلام. المؤتمر الدولي الثاني للعلوم الإنسانية ٢٠١٧. بولاو بينانغ، ماليزيا: العلوم الاجتماعية والسلوكية.

عبد المنعم، محمد جمال. (٢٠١٢). ممارسة المنزل في القاهرة القديمة: نحو نماذج اجتماعية-مكانية للحياة المستدامة. مجلة دراسات التصميم والتراث، ٢٣(٢).

فينهوفن، روت. (٢٠٠٨). النظريات الاجتماعية للرفاهية الذاتية. في م. إيد ور. ج. لارسن (محرران)، علم الرفاهية الذاتية. نيويورك: ذا غيلفورد للنشر.

كوريجان-كافانا، إميلي، وإسكوبار-تيلو، كارولينا، ولو، كاثي ب. ي. (٢٠١٩). استخدام تقنيات العلاج بالفن لاستكشاف السعادة في الحياة المنزلية. الابتكار الاجتماعي للاستدامة والسعادة: اللقاء العالمي الثاني. بودابست، المجر.

الكليني، محمد بن يعقوب. (٢٠٠٧). الكافي (الجزء ١٣). بيروت: مؤسسة الفجر للنشر.

ليوبوميرسكي، سونيا، وشيلدون، كينون م.، وشكيد، ديفيد. (٢٠٠٥). السعي وراء السعادة: عمارة التغيير المستدام. مراجعة علم النفس العام، ٩(٢).

نوكس، بول ل. (١٩٨٤). الأنماط، الرمزية، والإعدادات: البيئة المبنية ومتطلبات الرأسمالية الحضرية. العمارة والسلوك، ٢.